« دراسة التعديات البشرية وإعادة تأهيل العمائر الدينية الأثرية بمدينة القاهرة تطبيقا على مدرسة أزبك اليوسفي»

ربيع راضي عبد القادر سيد
مدير عام ترميم قصور ومتاحف رئاسة الجمهورية – وزارة الآثار – مصر.
شيماء سيد محمد السيد
أخصائية ترميم وصيانة الآثار بالفيوم – وزارة الآثار – مصر.

ملخص البحث :

تتعرض العمائر الدينية الإسلامية بمدينة القاهرة للعديد من التعديات البشرية التي لا تتناسب مع حرمة الأثر بل مع حرمة هذه العمائر الدينية العريقة مثل بناء المنازل ملاصقة لهذه العمائر الدينية كذلك وجود المحال التجارية والورش بالإضافة للإهمال البشري ونقص الوعي الأثري لدى المواطنين مما يستدعي إزالة هذه التعديات البشرية وإعادة التأهيل لهذه العمائر الدينية الاثرية بإعتبارها تراث ثقافي عريق مع التطبيق على مدرسة أزبك اليوسفي بمدينة القاهرة، منشئ هذه المدرسة هو الأمير أزبك اليوسفي من أمراء المماليك في مصر (900 هـجريه - 1494 ميلاديه) وقد أنشئت بحي السيدة زينب - مدينة القاهرة، وقد تألفت المدرسة من العديد من العناصر المعمارية كالمسجد بأيواناته الأربعة، المئذنة، كتاب ذو قاعات سكنية لطلاب العلم بالإضافة إلى السبيل.وفي هذه الدراسة سيتم التركيز على تأهيل هذا المبنى الأثري بما يتناسب مع طبيعته وعلاقته بالوسط المحيط كذلك الطابع العمراني وشبكات الطرق والخدمات ودراسة حالته وموقعه بالنسبة للمدينة لكيفية تأهيله مع المحافظة على أثريته وأصالته.

الكلمات المفتاحية : التعديات البشرية- إعادة تأهيل – مدرسة أزبك اليوسفي – الطابع العمراني – العناصر المعمارية .

Abstract:

The Islamic religious buildings in Cairo exposed to many human-trespasses which are not suitable to the monuments campus like buildings construction closed to the religious buildings, also the existence of shops and workshops beside the man-made deterioration and the lack of the

archaeological awareness , these things need to be removed to save and the rehabilitation of these buildings with an application on Azabk El- Youssefi Madrasa in Sayeda Zeinab street in Cairo , the madrasa consists of the mosque, minaret , Kuttab , Sabil and residential halls for the students.

The research concentrates on the rehabilitation of this archaeological building and its incorporation with the society.

1 - مقدمة عن منشئ المدرسة (الأمير أزبك اليوسفي):

منشيء هذه المدرسة هو الأمير (أزبك اليوسفي) الذي جاء إلى مصر مع تجار المماليك سنة 841هجريه /1437 م)فأشتراه الملك عبد العزيزبن برسباي الذي عرف بالعزيز يوسف فقيل له أزبك اليوسفي ثم لم يلبث أن أنتقل من بعده إلى مماليك الظاهر جقمق سنة 842 هجريه وظل في خدمته حتى أعتقه سنة 857 هجريه وولاه نظارة الخزانة فعرف بأزبك الخازندار وفي عهد الأشرف قايتباي من سنة 872 900- هجريه، أنعم عليه السلطان بالتقدمة وأرسله أميرا للمحمل سنة 868 هجريه ثم كرره في نيابة عيذاب وأشركه نظرا لشجاعته وفروسيته في معاركه الحربية ولا سيما في محاربة العثمانيين تأديب دويلات أخو الأمير سوار فأبلى أزبك اليوسفي فيهما بلاء حسنا وكأفاه السلطان عليه بأن جعله رأس نوبة، ولم يلبث أن رقاه بعدما أظهر من الحنكة السياسية وبعد النظر إلى أمير سلاح وفي عهد الناصر (محمد بن قايتباي) من سنة (900 902- هجريه) بعدما أنعم عليه السلطان بتقدمة ألف وجعله أمير مجلس وعاش أزبك اليوسفي بعد ذلك حتى توفى على عهد السلطان الغوري سنة 904 هجريه ودفن بتربة مدرسته التي بين أيدينا مع زوجته وأبنها والتي تحمل رقم تسجيل : أثر – [1]211.

2 - طريقة العمل بالمدرسة :

دلت الوثائق علي طريقة العمل بالمدرسة فقد جاء وثيقة السلطان برقوق بالنسبة لمدرسته بين القصرين أن الإيوانات الأربعة بجانب تخصيصها للصلاة، فإن الإيوان الشرقي يجتمع فيه طلبة المذهب الحنفي كل يوم مع مدرسهم من بعد طلوع الشمس لمدة ثلاث ساعات ونصف.

أما الإيوان الغربي فيجلس فيه طلبة المذهب الشافعي ومعهم مدرسهم من وقت الظهر حتي صلاة العصر وفي نفس الوقت تقام الدراسة للمذهب الحنبلي في الإيوان الشمالي والمالكي

في الجنوب وبجانب دراسة المذاهب تدرس مادة الحديث والتفسير والقراءات السبع في يومي الثلاثاء والجمعة[2].

3 - ملحقات مدرسة الأمير أزبك اليوسفي :

ملحق بالمدرسة كتاب، قاعات سكنية للطلاب وسبيل[3] بجانب المدرسة المكونة من المدخل ،الصحن، الأيوانات الأربعة والمئذنة[4].

4 - أهم مظاهر التعديات البشرية :

أ- إقامة المحال والورش التجارية.

ب- نقص الوعي الأثري لدى المواطنين متمثلا في :

-1 بناء المساكن ملاصقة لهذه العمائر وعدم المحافظة على الطابع الأثري .

-2 هدم جزء من هذه العمائر بدون وعي كالقاعات السكنية الملحقة بالمدرسة .

-3 الإهمال البشري متمثلا في إلقاء القمامة والكتابات على أسطح هذه العمائر .

-4 حركة النقل والمواصلات وما ينتج عنها من إهتزازات وتلوث جوي.

-5 تلف شبكات الصرف الصحي بالمنطقة وما ينتج عنها من مياة أرضية مدمرة لتربة المبنى الأثري وأساساته، كما يتضح من الصور التالية (1-4).

5 - عمليات إعادة التأهيل والتوظيف للعمائر الدينية:

أ- مفهوم إعادة التأهيل : Rehabilitation

تطبق عملية التأهيل على المناطق التاريخية المتدهورة أو التي في طريق التدهور وتهدف عملية إعادة التأهيل لرفع مستوى المنطقة عن طريق تحسين مستوى المباني الموجودة بالمنطقة سواء كانت أثرية أو قديمة أو حدثية كذلك تحسين المرافق العامة والخدمات الأساسية بالمنطقة[5].

ب- طرق إعادة التأهيل Rehabilitation methods :

-1 الترميم :

ترتبط بالمباني ذات الطابع المميز والتاريخي أو الأثري وترتبط بشكل أكبر بتعامل الأثريين دون المعماريين لأنها تختص بأعمال الواجهات والتشطيبات الخارجية لتلك المباني التى تحتاج لترميم لتعاد إلى شكلها الأصلي وهي وسيلة من وسائل التعامل مع حالات فردية من المباني

الواقعة داخل المنطقة التاريخية، وفي حالة إذا كان الهيكل الإنشائي لتلك المباني هو الذي يحتاج لتعديلات لإعادته لحالته الأولي فيأتي هنا دور عملية الترميم المعماري.

2 - الحماية :

عندما لا تكون هناك قدرة على القيام بأعمال الترميم فلابد من التأكيد على عدم حدوث تدهور للوضع القائم ولا تكفي الحماية القانونية فقط للمنطقة التاريخية والمبنى الأثري، بل يجب أن تكون هناك حماية من المجتمع والوسط المحيط للحفاظ على المنطقة التاريخية والمبنى الأثري .

3 - إعادة الإستعمال :

وتختص بإعادة توظيف المباني ذات القيمة الأثرية في إستعمالات جديدة تلائم التطور الحالي وفي نفس الوقت تضمن إستمرارية حياة تلك المباني والحفاظ عليها بصورة علمية، على أنه في سبيل ذلك لابد أن تكون هناك خسارة ما سواء في قيمة المبنى أو تكوينه أو وظيفته الأولى لكن هذا التوظيف مع أقل تغيير ممكن في هيكل المباني هو الحل العملي الوحيد للحفاظ على أهمية المباني التاريخية والثقافية في ضوء الموارد المتاحة.

4 - الحفاظ :

يكون الحفاظ لمباني معينة أو للنسيج العمراني والطابع الخاص للمنطقة التاريخية وقد تتسع أحيانا لتشمل حماية الهيكل الإجتماعي والإقتصادي جنبا إلى جنب مع الهيكل العمراني[6].

ج- إعادة توظيف المباني الأثرية:

- أهداف إعادة التوظيف للمباني الأثرية :

إن إعادة التوظيف للمبنى الأثري تزيد من أهميته وتضعه في مكانه لائقه به وذلك يمكن أن يتحقق من خلال أهداف عديدة كما يلي :

1 - أهداف خاصة بالمبنى الأثري :

أ- إيجاد نوع من الإشراف الدائم على هذه المباني الأثرية عن طريق مستخدميها والمتخصصين بها، مما يؤدي إلى الحيلولة دون إهمال هذه المباني وهجرها وكذلك منع التعدي عليها وإتلافها بشكل متعمد .

ب- الحماية والحفاظ والإحياء للمباني الأثرية وضمان إستمرارية أعمال الصيانة لهذا

التراث المعماري وخاصة الأعمال قصيرة الأجل كأعمال النظافة والتي يصعب ضمان إستمرارها دون إعادة توظيف المبنى .

ج- هذا وتعتبر إجراءات الصيانة لمثل هذه المباني الأثرية غير منتهية لإستمرارية إتصالها بالظروف المحيطة والوسيلة الوحيدة للحفاظ عليها وهي وجود الصيانة المستخدمة ويمكن تسمية تلك العملية بالصيانة الذاتية Auto Conservation.

د- رفع القيمة الجمالية للمبنى الأثري مما يؤدي إلى إظهار وتدعيم قيمته الفنية والتاريخية .

2 - أهداف عمرانية تخص المحيط العمراني للمبنى الأثري :

أ - تنمية المجتمع المحيط بالمبنى الأثري مما يساعد على الحفاظ على الطابع العمراني الأثري للمنطقة حيث أن إهمال أحد المباني الأثرية هو فقدان لأحد عناصر المنطقة الأثرية.

2 - عمل إسترجاع متلائم بين النسيج الحضري القديم والجديد لذلك فإن توظيف وإحياء وإعادة تأهيل المباني الأثرية التي توقف إستخدامها تعتبر إجراءا ضروريا يتناسب مع المكان بقيمته الحضارية .

3 - العمل على إستمرارية بقاء الأنماط التقليدية الإسلامية .

3 - أهداف اقتصادية :

إستثمار هذه المباني الأثرية وجعلها ذات نفع اقتصادي، ويري البعض إن إعادة إستخدام المبنى الأثري تعمل على توفير عائد مناسب يغطي تكاليف صيانة هذه المباني الأثرية ويساعد علي رفع مستوى الصيانة المتاحة لها، كما يرى البعض الأخر إن من أبرز مشاكل المباني الأثرية أو التاريخية إعتبارها ضمن قطاع الخدمات وبالتالي فرعايتها بالصيانة والترميم والحماية تعتبرا مستهلكا للموارد المالية ومن ثم يفضل عند التعامل مع مثل هذه المباني وتحويلها إلى قطاع للإستثمار في مشروعات لها عائد مادي مع ضرورة وضع ضوابط لهذا الإستغلال بحيث لا يضر بالمبنى الأثري.

4 - أهداف إجتماعية :

أ- إيجاد نوع من التعاطف الجماهيري بين المبنى الأثري وجمهور المتعاملين معه من خلال الوظيفة التى يفرضها المبني للمجتمع المحيط هذا وقد أضيف أن الأسلوب الأمثل

لتحقيق هذا الهدف هو إنتشار جمعيات وجماعات أهلية للصيانة والمحافظة من جمهور مستعملي المبني الأثري وذلك للإشراف المحلي على إعادة التوظيف وتنمية موارد ذلك المبنى الأثري وإعداد مشاريع إعادة التوظيف لمباني أثرية أخري .

ب- تدخل المبنى مع البيئة المحيطة القديمة والمتدهورة وذلك في صورة خدمات إجتماعية مثل الخدمات الثقافية والتعليمية .

د- شروط التوظيف الملائم للمباني الأثرية في ضوء المعايير والمواثيق الدولية:

1 - تشابه الوظيفة المقترحة مع الوظيفة الأصلية بقدر الإمكان .

2 - عدم تعارض الوظيفة المقترحة مع التكوين المعماري للأثر أو زخارفه فيما عدا المستلزمات الضرورية جدا كدورات المياه، شبكة الكهرباء والمياه والصرف الصحي على أن تكون غير مشوهة للمبنى وإذا تطلبت الوظيفة شيئا من التجهيزات الداخلية فيجب أن تتسم بالبساطة وتكون في أضيق الحدود وكذلك سهلة الإستبعاد وقت اللزوم.

3 - أن تضمن تلك الوظيفة المقترحة إستمرار عمليات الصيانة والمحافظة الدورية علي المبنى الأثري.

4 - ينبغي عند إحداث إضافات إنشائية تتطلبها الوظيفة الجديدة أن تكون بشكل متوافق ومنسجم مع طابع المبنى القديم وفي نفس الوقت تكون حاملة لطابع العصر الذي أنشئت فيه وبصفة عامة يجب إختيار الوظيفة المناسبة للمبنى من حيث فراغاته وموقعه دون اللجوء بقدر الإمكان إلى إحداث مثل هذه الإضافات.

4 - يجب ألا تتعارض تلك الوظيفة المقترحة مع التكوين الوظيفي العام للمنطقة.

6 - أن تكون المدينة القديمة في حاجة إلى هذه الوظيفة سواء لتأكيد هويتها وطابعها أو لتلبية رغبات سكانها ومن ثم الترغيب في البقاء فيها .

7 - أن لا يترتب على الوظيفة الجديدة للمبنى الأثري تواجد عدد كبير من المستخدمين بصفة دائمة، كما هو الحال إذا ما أستخدم المبنى مدرسة وما ترتب على ذلك من توابع إستهلاك المياة بكثرة أو عبث بعناصر المبنى .

8 - أن لا تكون تلك الوظائف ذات متطلبات خاصة لا تتلائم مع الواقع المادي والأثري للمجموعة المعمارية .

9 - أن لا يترتب على تقادم الوظيفة الجديدة مع مرور الوقت تعديلات بالمبنى الأثري، وتكون بدايتها قليلة ثم يؤدي تكرارها إلى تغيير محسوس بذلك المبنى[7].

10 - يقصد بكلمة « الحفاظ « أي أعمال تتم بالتدخل المباشر للعمل الفني أو غير المباشر كعملية إعادة التوظيف بهدف إمتداد صلاحية الأثر مستقبلا[8].

هـ - إعادة التأهيل والتوظيف للعمائر الدينية مع التطبيق على مدرسة أزبك اليوسفي :

إن الوظيفة الأساسية لمدرسة أزبك اليوسفي هي كونها منارة لتدريس العلم لكافة الطلاب من جميع أنحاء العالم، لذا توفر بالمدرسة كتاب بجانب المسجد وقاعات سكنية للطلاب بالإضافة إلى السبيل والمئذنة، وقد تعرضت هذه المدرسة للعديد من التعديات البشرية كما سبق ذكره بالإضافة إلى العديد من عوامل التلف بالبيئة المحيطة وخصوصا المياة الأرضية مما أدى إلى وجود تلف شديد بالإساسات والتربة وإنفصال بالحوائط، مما استدعى ضرورة إغلاق هذه المدرسة وعدم فتحها إلا نادرا للصلاة نظرا لخطورة وضعها القائم على المصلين وبالتالي فقدت وظيفتها نتيجة عوامل التلف بالبيئة المحيطة، كذلك التعديات البشرية لذا يقترح الآتي لإعادة تأهيل هذه المدرسة في ضوء ما ورد ذكره سابقا :

1 - القيام بعمليات الترميم الإنشائي والمعماري والدقيق لهذه المدرسة .

2 - إزالة التعديات البشرية بكافة مظاهرها وصورها .

3 - إندماج المدرسة مع المحيط العمراني المحيط بها عن طريق تقديمها لناحية خدمية هامة ألا وهي التعليم .

7 - النتائج والتوصيات :

من خلال ما تم سرده من مظاهر التعديات البشرية المختلفة التي تتعرض لها العمائر الدينية الأثرية الإسلامية بمدينة القاهرة تطبيقا على مدرسة الأمير أزبك اليوسفي كان لابد من إزالة مظاهر هذه التعديات بل وإعادة تأهيل هذه المباني الأثرية الإسلامية كنوع من الحفاظ عليها عن طريق إندماجها مع الوسط المحيط وحمايتها، ويتطلب ذلك التعاون بين العديد من المؤسسات كوزارة الآثار ووزارة الأوقاف وشرطة السياحة والآثار التابعة لوزارة الداخلية ولا يقتصر هذا الدور فقط على مؤسسة دون غيرها بل تعاون متكامل من أجل الحفاظ على هذه الآثار الإسلامية التي سجلت حقبات تاريخية مختلفة .

صورة (1): توضح الإهمال البشري المتمثل في لصق

الدعاية والإعلانات على سطح المدرسة

صورة (2): توضح هدم القاعات السكنية المخصصه

لطلاب العلم والملحقه بالمدرسة

صورة (3): توضح إلقاء القمامة على سطح المدرسة

صورة (4): توضح إقامة ورش تصليح السيارات أمام المدرسة

هوامش البحث:

1 - حسني محمد نوصير، **العمارة الإسلامية في عصر الأيوبين والمماليك**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ص250.

2 - محمد الكحلاوي، **آثار مصر الإسلامية في كتابات الرحالة المغاربة والأندلسيين**، الطبعة الأولى، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1994، ص77.

3 - عاصم محمد رزق، **أطلس العمارة الإسلامية والقبطية بالقاهرة، الجزء الثالث (آثار دولة المماليك البرجية)**، القسم الثانى، القاهرة، ص1478.

4 - سعاد ماهر, **مساجد مصر وأولياؤها الصالحون**، الجزء الرابع , وزارة الأوقاف , المجلس الأعلى للشئون الإسلامية , جمهورية مصر العربية ,1980، ص292.

5 - علاء ياسين، **المحافظة والتجديد في المناطق التاريخية**، رسالة ماجستير، قسم الهندسة المعمارية، كلية الهندسة، جامعة القاهرة، القاهرة، ص84 .

6 - مصطفى كمال مدبولي، **إعادة تأهيل المناطق المركزية ذات القيمة السياحية التاريخية في الدول النامية** ـ دراسة حالة القاهرة ـ منطقة الدرب الأحمر، قسم الهندسة المعمارية، كلية الهندسة، جامعة القاهرة، القاهرة، ص26.

7 - السيد محمود البنا، أحمد شعيب، **بعض معايير إعادة الإستخدام أو التأهيل للمباني الأثرية التي توقف إستخدامها**، مجلة كلية الآداب، العدد الثامن، 1997، ص29.

8 - علياء عبد العزيز محمود عبد الدايم، **دراسة ترميم وصيانة المنازل الأثرية بمدينة القاهرة وإعادة توظيفها تطبيقا على سراي المسافر خانه « العصر العثماني»**، رسالة ماجستير، قسم الترميم، كلية الآثار، جامعة القاهرة ،القاهرة،2001، ص 38 .